صور من التاريخ الإسلامي :

عبد الله بن الزبير

(١ — ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

كان القرن الهجري الأول عامراً بالأبطال الذين ترتكز بطولتُهم على العقيدة ، وتقوم شخصياتُهم على العزائم الثابتة ، والمبادئ الواضحة القويمة . ولو أن مؤرخاً إسلامياً أراد أن يسجل صفحة ثبتاً بأسماء النابغين من رجالات قريش ، في الصدر الأول من الدولة الأموية ، لكان خليقاً به أن يضع في طليعتهم بطلاً فذاً ، كان لا ينفك شوكةً في جنب هذه الدولة ، لسموّ نفسه ، وطمعه في الخلافة ، وعمله لتحقيق غرضه ؛ حتى كاد ينتزع اللقمة لنفسه من فم تلك الدولة الفتية ؛ كان يطمع في النجم ، وكان يؤيد مطامعَه عزمٌ قويّ ، وبأس شديد ، ولسان ذربٌ ، وشرف واضح ، وهمةٌ قعساء ، تَعضدُها الشهامةُ والبطولة ، ولقد تمت له بكل هذا أدواتُ الرجولة . ذلك هو عبد الله بن الزبير الأسدي القرشيّ

أنجبه أبوان كريمان ؛ أما أحدُهما فالزبير بن العوام بن خويلد من بني أسد بن عبد العُزى ، حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية ؛ ولم يكن الزبير مغموراً ولا وسطاً في الناس ، وإنما كان رجلاً من الطراز الأول ، ومن ذوي المقامات الممتازة الذين تقوم الدول على أكتافهم ، ولا يُبَتُّ في أمر هام إلا بعد مشورتهم وبذل نُصحِهم ؛ ولقد كانت له اليد الطولى في نجدة الإسلام أيام كان المسلمون قِلّة ، كما كانت له مواقف مشهودة وآراء سديدة ، في فتح البلدان ، ونشر الإسلام ؛ أرسله أميرُ المؤمنين عمر إلى مصرَ نجدة لابن العاص وهو يحاول فتحَها ، وقال له : إني أرسلت اليك رجلاً بألف ! ولقد برهن الزبير بسداد رأيه ، وتجيد أعماله أنه أهلٌ لهذا التقدير العظيم . وفي الحق أن الزبير كان يُعدّ في الصف الأول بين أمجاد قريش ، وذوي الثروة فيها ، وقد رشّحه مركزُه ونباهةُ شأنه ، وقوة شخصيته للخلافة ؛ فكان أحد الستّة الذين عَهد اليهم ابن الخطاب ، أن يختاروا خليفةً منهم بعد وفاته للمسلمين

هذا هو الزبير أبوه ؛ أما أمه فحسبُ القارئ أن يعرف أنها أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وأخت عائشة أم المؤمنين ، وكانت مع شرف أرومتها ، ذات حزم وفكرٍ ثاقب ، كما كانت صُلبة العود ، أبيّةَ النفس ، لها عزمٌ جبّار ؛ فلو أنها لم تكن أنثى ، لكانت رجلاً ولا كالرجال ! ! !

من هذه الأنساب الواضحة ، والدوحة الباسقة ، خرج عبد الله وورّثه آباؤه وأقرباؤه أجل الصفات الممتازة التي تغذى الطموحَ وتُذكيه ؛ وساعدت بيئتُه التي نشأ فيها على تنمية خلال البطولة والاقدام في نفسه ، فامتاز بالفصاحة ، وذلاقة اللسان ، وقوة الحجة ، حتى كان يعد من خير خطباء الاسلام ؛ واشتهر كذلك فضله وزهده ، وطولُ صيامه وقيامه ، بين الخاصة والكافّة . أما شجاعتُه فحدّثْ عن الليث ولا حرج ! فهو الذي يقول : « ما أبالي — إذا وجدت ثلثمائة من الرجال ، يصبرون صبري — لو أجلب بهم على أهل الأرض ! ! » ويشهد له أبو عبيد بأكثر من هذا فيقول « إن عبدَ الله كان لا يُنازَع في ثلاث : شجاعة ، وبلاغة ، وعبادة » وتلك عدةُ الرجولة الكاملة ، وخاصة في ذاك العصر

* * *

كان عبد الله أولَ مولود للمهاجرين بالمدينة عامَ الهجرة ، فتدرج بها ، ونشأ فيها ، حتى نال من التعليم المنتشر في عصره ما أكسبَه ثقافةً دينيةً محْضة ، فعرف الكتابة والقراءة ، على طريقة عصره ، وحفظ الكتاب ، وروى الأحاديث ؛ واقتدى في حياته وعبادته بمن كان يخالطهم ويعاشرهم من جلة الصحابة الكرام ؛ فأثر هذا في أخلاقه تأثيراً كبيراً ، كان من ثماره تلك النزعةُ ، نزعةُ العبادة وطول القيام والتهجّد التي غلبت عليه فيما بعد . وكان أهم ما يجذب النظر اليه وهو صغير ، جراءته النادرة ، وميله إلى العناد ، مع الثقة بنفسه ، والاعتداد بقوته ؛ « كان ذات يوم يلعب مع الصبيان ، فمرّ رجل فصاح بهم ، ففروا ومشى عبد الله القهقرى (بظهره) ثم قال : يا صبيان اجلوني أميركم ، وشُدوا بنا عليه فنهزمه ! » . ومرّ به عمر بن الخطاب ، وكان عبد الله مع صبيان يلعبون ، ففروا وبقي هو ؛ فقال له عمر : لماذا لم تفر مع رفاقك ؟ فأجابه بجراءة وفصاحة : « لم أجرمْ فأخافَك ،

وليست الطريق ضيقة فأوسع لك » . هذه أمثلة صغيرة ، ولكنا نلمس فيها روحاً متحركة وثابة ، في زمن الطفولة والتنشئة ، ونستنبط منها أن للعظمة بوادر تلوح في الحوادث الحقيرة ، كأنها ارهاصات لظواهر أخرى كبيرة ، تكون حيناً تكون عظائم الأمور ، ومن هذه المُثُل وأشباهها نعرف أيضاً مدى اعتداده بنفسه ، وثقته بها ؛ ولا ريب أن الحبّة الجيدة إذا صادفت أرضاً خصبة فانها تشق الأرض شقاً ، لتحيا على أنضر ما تكون النبتةُ الطيبةُ حياة وبهجة !

ولما بلغ أشده وأطاق حمل السلاح ، ثقف صناعة الحرب ، ثم صحب الجيوش الغازية ، وأبلى في العدوّ بلاء محمودَ الأثر ؛ روى الزبير بن بكّار « أنه ـ عبد الله ـ قتل بيده في فتح افريقية أميرَ جيوش الروم » فأرسله عبد الله بن أبي سرح (وكان قائد جيش المسلمين) بشيراً إلى أمير المؤمنين عثمان ، فلما سمع بشارته أعجبه كلامُه وشجاعةُ قلبه ، ثم سأله : أيمكنه أن يخطب الناس بمثل ما أخبره به ؟ فأجابه : وما يمنعني من ذلك ؟ ثم قام خطيباً ، وتدفّقت من فيه آياتُ البلاغة ، وأطنب في وصف الفتوح ، وفصّل هزيمة العدو ، حتى أسر القلوب ، وأدهش السامعين ، بفرط بلاغته وقوة عبارته ، وتمكنه من ناصية القول والموقف ؛ فقام أبوه وقبله بين عينيه ، وانفضّ الجمع ، وليس فيهم إلا معجبٌ ببيانه ، مثنٍ على شجاعته

ولم أطلع في وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قول أبي عمرو بن عبيد : « كان عبد الله شهماً ذَكَراً ذا أَنَفَةٍ ، وكان له لَسَنٌ وفصاحة ، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة ، شديد البأس ، كريم الجدات والأمهات والخالات » . بهذا الوصف الكريم الجامع استأهل ابن الزبير أن يكون في الطبقة العالية بين رجال عصره ، وما فتىء عثمان يتفرس في خلاله قوة الشكيمة ، وفرط النبوغ ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحبُّ والرضا ، حتى كان يوم الدار ، فاستخلفه عليها قبيل مصرعه ... ومن ثمّ دبّ الطمع إلى قلبه في طلب الخلافة لنفسه ، وأبقى ذلك سراً مكتوماً ، ولكنه لم يألُ جهداً في تحقيق هذا الحلم الجميل ، الذي يلائم طبعه ويشبع رغباته الكامنة ؛ ولِمَ لا يكون خليفة وقد استخلفه أمير المؤمنين عثمان على داره التي هي دار الخلافة ؟ ولِمَ لا يكون خليفة وجدُّه أبو بكر أولُ الخلفاء ؟ بمثل هذا تحدّث إلى نفسه ، ولكن أنّى له هذا ، وفي القوم كثيرٌ ممن يكفُّونه بمجرد وجودهم عن ذلك المرتقى السامي ؟ ؟ وإذن فليرتقب سنوح الفرصة ، وليأخذ أهبته ريثما تواتيه الظروف المسعدة ، عسى أن ينال ما يبتغيه ! ! وقد قضت عليه سياسة الترقب هذه أن يناوئ كل خليفة يلي الأمر من بعد عثمان ، فما هو أن بويع عليٌّ بالخلافة حتى قام عبد الله يؤلب عليه أهلَ الحجاز بزعامة أبيه الزبير وطلحة بن عُبيد الله ، وتحت راية خالته عائشة ، وما كانت أم المؤمنين لتخرج من تلقاء نفسها لملاقاة عليٍّ بالعراق ، وإنما زجها عبد الله ودفع بها في هذا المأزق الحرج ، بعد أن بين لها فظاعة الجريمة التي ارتكبها الثائرون ضد عثمان ، وبعد أن هوّل ما بينها وبين علي من الأحن القديمة ، فاستجابت طبيعة المرأة لما أُلقي اليها من دواعي الاغراء ، وأجمعت أمرها على النزال ، فقامت تخطب المسلمين ، تحرضهم على الانتقام لعثمان . . . . حتى كان ما كان يوم الجمل . روى المسعودي « أن عائشة قالت يوماً : إذا مرّ ابن عمر فأروني ، فلما مرّ قالوا هذا ابن عمر ؛ فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهاني عن مسيري إلى العراق ؟ قال : رأيت رجلا قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفينه !! (يعني عبد الله بن الزبير)

يؤخذ من هذا ومن قول الرواة أن عبد الله كان هو المحرك الخفيّ لجيش عائشة على علي ، وأنه كان قطبَ الرحا يوم الجمل ، والدافع له إلى هذا إنما هي نيتُه المستورة ، ورغبتُه الكبوتة في أمر الخلافة

* * *

ثم تجري الأمور على قدر ، ويتولى معاوية الأمر بعد مقتل علي ، فيتمنى عبد الله أن لو كان معه جند يشدّ أزره أمام الخليفة الجديد ! ولكن أنى له ذلك الآن ! وقد انقسم المسلمون فرقتين ، ظفرت سياسة إحداها بزعامة معاوية ، وخذلت الأخرى بمصرع ابن أبي طالب ، فلم يبق إلا الاذعان للواقع ، والحزم إذن في المداورة لمن يبغي أمراً جللاً كهذا ، ولابد حينئذ من المبايعة ، مع الترقب من جديد لفرصةٍ أخرى أمثلَ من هذه

بايع ابنُ الزبير معاوية ، وفي نفسه غصة ، ولقد كانت المطامع الكبيرة التي ينطوي عليها توقفُه من معاوية موقف الند للند ، بل موقف الشاكس المناقض ، حتى ليهم الخليفة أن يبطش به ، فلا يحجزه عن ذلك إلا مركز عبد الله من جهة ، وخشية الانقلاب والفتنة من جهة أخرى ،

يُروى أن معاوية حجّ سنة ، ثم رحل إلى الشام ليلاً ، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبد الله ، فقفا أثره على فرس ومعاوية نائم في هودجه ، فانتبه على وقع الحافر ، وقال من صاحب الفرس ؟ قال أنا عبد الله ! لو شئت يامعاوية لقتلتك الآن !! (يمازحه بهذه الكلمة) قال معاوية لستَ هناك ، ثم دار بينهما حوار طويل ، وكان مما قال عبد الله : أقطعها يامعاوية ! أما إنا قد أعطيناك عهداً ، ونحن وافون لك به مادمت حياً ، ولكن ليعلمن مَن بعدك !!!
وفي هذا التهديد ماينم عن ثورة عنيفة يتأجج بها صدر عبد الله ، وإنما كان يكتمها إلى أجل ؛ وكثيراً ما كان يضيق به معاوية فيغمز عليه عمرو بن العاص ليُحرجه ويستثير دفائنه ، فيقع بينهما في مجلس الخلافة الجدالُ الشديد ، والتفاخر بالآباء والأحساب ، ولكن ابن الزبير كان يُفحم عمراً بالقول الرادع ، والحجة الدامغة . قال له مرة : « يا ابنَ العاص . إنما طال بي إلى الذُّرى ما لا يطول بك مثله : أنفٌ حمى ، وقلبٌ ذكى ، وصارم مشرفي ؛ في تليد قارع ، وطريف مانع » . فعبد الله — كما قلنا — يطوى نفسه على طلب الخلافة ، ويستسرّ الأمر ، ولم يكن هذا ليخفى على أحد ، حتى على الخليفة نفسه ؛ وتتضح نيته ، وتظهر مطامعه لمعاوية حينما يطلب منه أن يبايع لابنه يزيد . يروى الرواة أنه لما طلب منه ذلك أطرق مفكراً ، فقال معاوية مالي أراك مطرقاً إطراقَ الأفعوان في أصول الشجر ؟ قال : « أنا أناديك ولا أناجيك ؛ أخوك من صدَقك ، ففكّرْ في الأمر قبل أن تندمَ » فهو لم يرض البيعة ليزيد ، ولم يوافق معاوية على ما أراد لابنه من المُلك ؛ وبهذه الحجة الحازمة جابه خليفة المسلمين ، مع قدرته على الفتك به . ولقد حذّر معاوية ابنه يزيد منه ، إذ كان لا يخشى عليه أحداً سواه ؛ قال لابنه : « إياك منه — ابن الزبير — إنه الثعلب الماكر ، والليث يصول بالجراءة عند إطلاقه ، فوجّهْ إليه كلّ جدك وعزمك ، وأمّا ما بعد ذلك فقد وطّأتُ لك الأمر ، وذللتُ لك أعناقَ المنابر . . . » . فمعاوية السياسي الخطير ، والداهية العظيم ، لم يكن يخشى على خلافة ولده إلا عبدَ الله ؛ وإنما كان يتوقع الشر والوثوبَ من جانبه ، لما يعهده فيه من قوة الشكيمة ، وصدق العزمة ، وأنه لايستكين ولا يستخذى ، وأن صدرَه مطوىٌّ على أمور جسام

***

ويلحقُ معاوية بربه ، فيتجلى نزوع ابن الزبير للخلافة بصورة واضحة قوية ؛ حيث يتولى يزيد الأمر ، ويميل إلى السرف في المتع والشهوات ، وينغمس في ملاذه ، حتى لينسيه ذلك أن يعنى بأمور المسلمين على الوجه الذي يرضي جمهرتهم في سائر الأمصار ، ويضمن التفافهم حوله . حينئذ يغلي صدرُ عبد الله بمكنوناته ، فيتحفز ، وتزداد حرارة نفسه ، ثم ينطلق إلى منبر المدينة ، فيُلقى من أعلى ذروته على أهل الحجاز كلمةَ الثورة على الخليفة الأموي ؛ يخطب القوم خطبة حماسية حارة ، يسب فيها يزيد ، ويذكر مقابحه وعيوبه ، ثم يبلغ كلامُه مسامع يزيد ، فيؤدى هذا إلى وقعة الحرّة ، التي انتهك فيها جيش الخليفة حرمات المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه نقطة سوداء أثيمة ، كان من شأنها تحويل قلوب كثيرة من مختلف الأقطار الاسلامية عن الخلافة الأموية ، وساعدت ابن الزبير كثيراً على مطلبه ؛ وقد قلنا إنه كان يتطلع إلى منصب الخلافة وزعامة المسلمين منذ زمن بعيد ، وكانت نزعته هذه تعتمد على عدة أمور : منها أن عثمان استخلفه على الدار يوم حصارها ، فتدخّله من هذا الاستخلاف طموح إلى الأمر ، ولما كان يقول لئن أصبتُ بأبي فلقد أصبت بابنى عثمان ؛ وقوّاه على هذا أن طلحة والزبير قدّماه للصلاة بالناس أيام وقعة الجمل ، وكأنى به يقول لنفسه : لم لا أكون خليفةَ المسلمين ، والأمر لا يجرى على ميراث ولا يتبع قانوناً ؟ ولم لا يؤسس أسرة زبيرية ، كما أراد معاوية أن يُقيم دولة سفيانية ؟ وقد نمى عنده هذه الخواطرَ ما أنسه في نفسه من قوة الشخصية ، وشدة الاعتداد ، مع شرفه وجراءة قلبه . سأله ابن عباس مرة : عاذا تروم هذا الأمر ؟ قال بشرفي ! ، وقد وجد في أهل الحجاز ضراماً لناره ، فهم يؤيدونه على الأموية ، ولما اتخذ الحجاز مقراً لدعوته

(البقية في العدد القادم)

محمد حسني عبد الرحمن

سيجارة ملوك الهند
سرعة انتشارها دليل بأنها على كيف المدخنين
تطلبها في أي مكان تجدها ابتداء من ١ ص لغاية ١٠ ص
وطلبات الجملة من الأدارة العامة
٥ ميدان العتبة الخضراء بالقاهرة
شركة منتجات الهند